

المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين

هذا المقال يتناول قطاعاً صغيراً من تاريخ طويل لإقليم فسيح ، وهو غرب إفريقيا .

كان هذا الإقليم في العصور الوسطى جزءاً من عالم إسلامي واسع ، تربطه أوثق الصلات بدولة الماليك في مصر ودولة الشرفاء في مراکش . وتبادل هذا الإقليم مع هاتين الدولتين عدداً كبيراً من الطلاب والأساتذة والمؤلفات ، وشهد قيام مدن كانت حواضر للثقافة الإسلامية العالية ، كما شهد دولا إسلامية تنفعل بالحضارة الإسلامية وبالجهاد . ولم تنفصم عرى هذه الصلات الوثيقة إلا بسبب الغزو الاستعماري ، وتقسيم القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر .

وأدت الجماعات الإسلامية في غرب إفريقيا دوراً رائعاً في التاريخ المعاصر ، فكانت مثلاً طيباً للصمود الإفريقي أمام جماعات المستعمرين ، وكانت نظم الإسلام وحضارته مما ألهم هذه الجماعات الصمود والمقاومة بفضل دينهم . وقنعت الجماعات الإسلامية أولاً بالانطواء والعزلة ، مع الاستعداد للنهوض ، ولذا اعترف كل من المؤرخان ترمنجيهام وميك بأن الحضارة الإسلامية كانت الخطر الخفي الذي واجهه الاستعمار .

ثم لاحت نذر التحرر في القارة ، وبدأت قبضة الاستعمار تتهاوى ، فكانت الجماعات الإسلامية هي التي غذت حركات التحرير ، بزعامات وقيادات لم يمسهما الاستعمار بمغرياته ، فقامت هذه الجماعات من وراء الأحزاب الوطنية تمدّها بالتأييد والمساندة ، وقدمت للحركة الإفريقية قيادات لا تزال ماثلة لنا حتى اليوم ومنها سيكوتوري والمرحومان وأبو بكر تيفاوا باليو أحمد وبلو .

وهذه الجماعات الإسلامية التي يقدر عددها اليوم بأكثر من ثلاثين مليون نسمة سوف تقوم بدور عظيم في مستقبل هذه القارة ، وفي تحقيق الوحدة الإفريقية ،

وتأكيداً واصر الصداقة التقليدية ، وهو واضح من الصلات النامية بين نيجيريا ومالي والسنغال وغينيا ، وغيرها من البلاد .

ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نتدبر الماضي ، ونتعمق وراء هذا الميراث ، باحثين عن جذوره الأولى ، وكيف ضربت في الأرض ، وأنبثت هذه الثمرات المباركات .

والجنود المجهولون في هذا الميدان هم جماعات الطوارق أو الملمثمين ، أو صنهاجة الرمال أو صنهاجة الجبل الثاني ، كما يقول ابن خلدون ، . وكان دور هذا الجماعات دوراً شبيهاً بدور العرب في النوبة والسودان ، أو دور الأعفار والدناقل والجالا في شرق إفريقيا ، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقيا ، وهم الذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات ، وكانوا العامل التوجيهي لتاريخه وثقافته .

كانت هذه القبائل تنتشر في وطن فسيح يمتد من غدامس في طرابلس إلى المحيط الأطلسي ، كما يمتد في المناطق الصحراوية التي تلي جبال درن وامتد هذا الوطن كذلك من جبال أطلس الكبرى حتى مصب نهر السنغال ، بل امتد أحياناً إلى مقربة من منحني نهر النيجر ، ومن هذا النهر صوب الشرق ، إلى مدينة تاد مكة في قلب الصحراء الكبرى . وأحصى ابن خلدون من هذه القبائل نحو السبعين ، لكن يكفي أن نشير إلى الأحلاف والمجموعات القبلية الكبرى ، وإلى الوطن الذي تنزله ، لأن وجودها في هذا الموقع أو ذاك حدد لها دوراً واضحاً في تاريخ هذه المنطقة الشاسعة .

وأول هذه الجماعات قبائل لمطة وجزولة التي نزلت قرب المغرب الأقصى ، من جبال درن حتى وادي نول على المحيط ، ثم قبائل لتونة المنتشرة جنوباً حتى رأس بوجادور ، أما قبيلة جدالة فتمتد ديارها جنوب قبيلة لتونة حتى مصب السنغال ، على حين تنتشر بطون قبيلة مسوفة في المناطق القاحلة الممتدة صوب الغرب .

وكان يقابل هؤلاء وأولئك جماعات من الزنوج اتصلت بهم ، وتعاملت معهم ، وتعرضت لإغاراتهم أحياناً ، أولدعوتهم المسالمة أحياناً أخرى ، ودخلت معهم في معاملات ومبادلات جماعات التيو كولور ، والولوف ، والسيرير ، وكلها في جنوب السنغال مباشرة . وعلى الضفة اليسرى من النيجر نزلت جماعات الفلاحين

من السنغاي ، وبين وأولئك وهؤلاء نزلت الشعوب المتكلمة بلغه الماندي ، وتسمى أحياناً بجماعات المانديجو .

وكانت اتصالات الطوارق بهذه الأوطان وهذه الشعوب ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادي تقريبا ، ولكن هذه الاتصالات لم تكن تتجاوز أبداً أنواع الانتقالات الموسمية ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التي أنشأتها الشعوب الزنجية ، وإشارات خاطفة على أوطان هؤلاء الزنوج ، لاقتناص العبيد وحملهم إلى أسواق المغرب أو البحر الأبيض المتوسط .

وظل الحال على ذلك حتى كان القرن الثالث الهجري ، ثم شهد المغرب تطوراً جديداً ، حين رسخت به قواعد الإسلام ، ووضعت معالم المدرسة المالكية في القيروان ، في ظل الأغالبة في تونس . وكان الأغالبة في تونس يجاهدون في صقلية والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت مدينة فاس قد أضحت في ظل إدارسة قاعدة هامة في نشر الثقافة العربية الإسلامية . وغداً الجهاد فرضاً على هذه الإمارات الناشئة ، تكتسب منه تراثها ووجودها ، فإذا كان جهاد الأغالبة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان جهاد الإدارسة صوب جنوب المغرب الأقصى إلى ديار الملمين . وعكف الإدارسة على الدعوة الإسلامية بين ديار الملمين ، واستطاعوا في القرن الثالث الهجري أن يمدوا نفوذهم إلى مدينة أغمات والسوس الأقصى وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال ، وتأكد إسلام الطوارق في القرن الثالث الهجري ، ودخلوا في الاتحاد الذي أقامه الإدارسة بزعامتهم .

وأحدث تمكن الإسلام منهم على هذا النحو تغييراً جذرياً في حياتهم ، بل في تاريخ المنطقة كلها ، فلم تعد القبائل تنصرف إلى الجنوب ، كما كانت تفعل دائماً بل تحركت بدافع للجهاد وتأكيدهم لإسلامهم الجديد . وكان هذا أشبه بتحول الاعفار والديناقل إلى الإسلام ، وانصرفهم إلى الإغارات المتلاحقة على حافة الهضبة الحبشية . وقد أدى إسلام هذه القبائل إلى قيام حلف قوي جمع قبائل الطوارق كلها بزعامة لتوتة ، وكان هذا التوحيد نذيراً بموجة من التوسع صوب الجنوب ، والاصطدام بمملكة غانة ، كما اصطدمت القبائل العربية المندفعة من مصر بمالك النوبة المسيحية .

ومملكة غانة هذه أسستها قبائل الماندى أو الماندنجو، وتبادل الزعامة وإياها أحياناً قبائل السوننكة . واسم غانة هو الذى اتخذته الجمهورية الإفريقية الحديثة اسماً لها ، إحياء لهذه الذكرى القديمة وهو، اسم كان يطلق على الطبقة الحاكمة ، ثم أصبح علماً على العاصمة التى الماندنجو، أسسوها، وحدد المؤرخون ظهور هذه المملكة الإفريقية الخالصة بعام ٣٠٠ ميلادية ، بسبب تأثيرات وصلت من الخارج لم يحدد كنهها . توسعت هذه الدولة فى السنوات الممتدة من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى ، من منحنى النيجر حتى أطراف المغرب الأقصى . ثم استولى السوننكة على الزعامة فيها سنة ٧٧٠ م ، وتم لهذه الدولة إخضاع منطقة فوتا حيث قبائل الولوف والسير والتكرور، وبلغت هذه الدولة أوج اتساعها فى القرن الحادى عشر .

ثم بدأ الطوارق منذ إسلامهم يشنون حرباً لا تنقطع على مملكة غانة ، ووصل لاشتباك إلى ذروته مرتين ، عام ٣٠٧ هـ ، مرة أخرى وعام ٤٠٧ هـ ، وخل الطوارق واحة أودغشت الغانية أكثر من مرة ، وفرضوا الجزية على المغلوب ، وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يستأصلوا غانة نهائياً من الوجود الإفريقى فإن حركاتهم أدت إلى وصول الإسلام إلى ديارهم خلال القرن الحادى عشر .

وزار البكرى الرحاله هذه البلاد عام ١٠٦٧ ميلادية ، وذكر أن بالعاصمة اثنى عشر مسجداً وعدداً من الفقهاء وأهل العلم ثم ستأنف الطوارق النضال ضد غانة مرة أخرى عام ٤٢٩ هـ ، وفتحوا ثغرات فى المجتمع الغانى ، ونفذ من خلالها التيار الإسلامى منطلقاً نحو الجنوب حتى حوض السنغال الذى قدر له أن يفعل انفعالا إسلامياً ينبع من ترابه وأرضه، شأنه فى ذلك شأن كل قطر تستظله الراية الإسلامية ، وتستهويه الحضارة الإسلامية .

وهنا تنتقل هذا إلى القرن الخامس الهجرى الذى شهد خروج قبائل الطوارق والسنغال على مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى كله . وهكذا هو القرن الذى شهد تطوراً على الجناح الشرقى لدار الإسلام ، إذ اندفع السلاجقة من وراء النهر إلى بغداد لتخليص الخلافة السنية من البويهيين المتشيعه ، ثم اندفعوا إلى قلب آسيا الصغرى وأحرزوا للإسلام نصره الكبير .

وجرت أحداث مشابهة على الجناح الغربي لدار الإسلام حيث وجد زعماء قبيلة جدالة من الطوارق أنفسهم ، أمام تجربتين عظيمتين ، أو محاولتين كبيرتين ، للقضاء على غانة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً ، بسبب سرعة تفرق الأحلاف التي تلم شعثهم ، وتوحد صفوفهم ، ورأوا أن الوحدة لن يتم إلا بدعوة دينية تنبثق من صفوفهم .

ولذا استقدم زعيمهم جدالة فقيهاً مالكيًا من صناع التاريخ ، يدعى عبد الله ابن ياسين وأخذ هذا الرجل أخذ يبيث الدعوة الإسلامية على مذهب المالكية ، ولكنه لم يلبث أن وجد سياسة الوعظ لا تجدى ، فأوى إلى رباط في جزيرة نائية في مصب السنغال ، وعاش عيشة الزهد والتقشف . وتسارعت إليه الصفوة ، ثم زاد أتباعه من المرابطين ، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية ، وتعلم الإسلام الصحيح والقول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بلسانهم أضعف الإيمان بل بأيديهم وأسلحتهم علماء منهم يأت هذا هو النهج السوي لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم .

وشن عبد الله بن ياسين حرباً على غانة في الجنوب واشتبك مع بقيتها في قتال عنيف انتهى بدخوله مدينة أودغشت حالفه التكرور في هذا الجهاد بعد أن حسن إسلامهم .

ثم اندفعت موجة من جماعات المرابطين إلى المغرب الأقصى أشبه باندفاع سلاجقة إلى بغداد ، وذلك لتخليص البلاد من عبث الزناتية وبغيهم وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بينهم .

ثم عبر المرابطون جميعاً البحر إلى الأندلس ، مثلما اندفع السلاجقة إلى آسيا الصغرى ، وأحرز زعيمهم يوسف بن تاشفين النصر المعروف في معركة الزلاقة ، عام ٥٤٧٩ هـ .

ولم يغفل المرابطون عن الجنوب كما لم يغفل السلاجقة عن ما وراء النهر فكان الأمير الشرعي أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين في الجنوب ، وقد استطاع بعد جهاد مستمر أكثر من خمس عشر سنة أن يستولى على البقية الباقية من غانة وأن يضمها إلى دولة المرابطين الشاسعة ومات في ميدان المعركة ودفن هناك وانتهت غانة من الوجود التاريخي في غرب إفريقيا .

وقطع المرابطون بهذا كله شوطاً بعيداً في إكساب غرب إفريقيا صبغته الإسلامية . إذ انقسخ المجال أمام الطوارق لمزيد من الهجرات والاندفاعات، تحت علم المرابطين، فانتشروا صوب الشرق على حافة المنطقة شبه الاستوائية، مارين بمنحني النيجر شمال نيجيريا الحالية، عبر مدن تشاده ثم بلاد الكانم والبرنو ودارفور .

وتركت هذا الحركات أنراً عظيماً في انتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين، فضلاً عن جميع الشعوب المكونة لغرب إفريقيا . وهكذا أسلم في عصر سيادة المرابطين السنغى والماندى والتكرور والسير والحوصا وغيرهم .

وأسلم ملوك غانة وأخلصوا في إسلامهم، وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم، وتحولت غالبية الغانيين إلى الإسلام . وقام دعاة المرابطين بنشر الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر، بل نشروا الإسلام على ضفاف السنغال، وأسلم شعب التكرور والماندنجو، أما الشعوب التي لم تذعن فإنها فرت ما إلى الجنوب أو إلى الغرب .

وأصبح شطر كبير من غرب إفريقيا جزءاً من إمبراطورية المرابطين الذين جمعوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقيا في وحدة سياسية واحدة، وكان أميرهم، واسمه أمير المسلمين نائب في الأندلس، وأكثر من نائب في المغرب، ويخيل إلى أنه كان لهم نائب في مدينة أودغشت، وكان أولئك النواب يعيشون في مقاطعاتهم كأنهم الملوك .

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة إلى غرب إفريقيا من مدارس المغرب والأندلس . وفي عهدهم تم أعظم مجهود في الميدان الثقافي في تاريخ غرب إفريقيا، حينما أسست مدينة تنبكت التي أضحت حاضرة الثقافة العربية هناك، وأدت نفس الدور الذي أدته القيروان في تونس وفاس في المغرب الأقصى .

وتأسست مدينة تنبكت في آخر القرن الخامس الهجرى، فيذكر السعدى

مؤلف تاريخ السودان أن الطوارق هم الذين اختطوا هذه المدينة. إذ كانوا يصيرون على ضفاف النيجير عند موقع المدينة ثم يرحلون في الخريف إلى أوطانهم، ثم استقر بهم المقام على مقربة في عهد دولة المرابطين، بحيث نشأت المدينة نهائياً، وأضحت سوقاً هامة يؤمها التجار بطريق النهر وتصل إليها، القوافل عن طريق مراكش. وسرعان ما أقتنى العلماء أثر التجار، فشكلوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس، ومن مصر وغدامس وتوات. وبنى بها المسجد الجامع والمسكن والأسواق يقول السعدي في وصفهما (ص ٢١) «مادنتها عبادة الأوثان، ولا مسجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والصالحين».

وامتد الإسلام إلى مدينة أخرى، كان لها في تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتبكت، وهي مدينة جنى التي أسلم أهلها في القرن السادس، وأما العلماء والفقهاء. ويذكر السعدي أنه كان بهذه المدينة أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم.

وقبل منتصف القرن الثاني عشر، وفي ١١٤٥ م على وجه التحديد، شهد المغرب تطوراً آخر قدر له أن يزيد حركة المرابطين تأصلاً ورسوخاً، قامت دولة الموحدين على أنقاض نفوذ المرابطين في المغرب والأندلس، فكان هذا أشبه بقيام دولة الماليك المندفعة صوب النوبة والسودان، ذلك أن ازداد ضغط الموحدين على قبائل الطوارق، وتدفعت الهجرات إلى المنطقة على نطاق أوسع فهاجرت القبائل التي تكونت منها شعوب الحوصا إلى واحة أير، ثم اندفعت إلى الجنوب مكونة إمارات الحوصا في شمال نيجيريا، كما اندفعت قبائل أخرى صوب بلاد الكانم والبرنوب، أو صوب دارفور.

وأدى هذا إلى مزيد من الاختلاط إذ كانت القبائل المهاجرة حتى ذلك الوقت تحيا حياة مستقلة، وتتخذ الطابع الحربي محافظة على كيائها وكان اعتمادها على الخيل يجعل نطاق أعمالها العسكرية واسعاً شاسعاً، حتى إذا كان عصر الموحدين بدأ الاختلاط التدريجي عن طريق الزواج، ونشأت طبقة جديدة من المولدين، وأحبت أن تستقل بشأنها بعد إسلامها، فأستت الإمبراطوريات، بعد أن تعلمت من سادة الأمم فنونهم العسكرية ونظمهم وتقاليدهم لاجتماعية والدينية.

كانت الظاهرة الجديدة نشأة دويلات إسلامية جديدة على أكتاف جماعات المولدين ، ولم يكن معنى هذا استبعاد نفوذ الطوارق نهائياً ، لأنهم ظلوا العامل المؤثر الفعال في تاريخ البلاد ، فكانوا مستشاري الملوك ووزراءهم وقوادهم ، وأدت الدويلات التي ظهرت في هذه المنطقة دوراً واضحاً في تاريخ البلاد ، فكان ملوكها يعنون أكثر ما يعنون بالخروج إلى مكة للحج ، في مواكب وفق رسوم معينة ، كما حرصت كل دويلة منها على تأكيد روح الأخوة الإسلامية ، عن طريق الاتصال بمصر المملوكية ، أو بمراكش في عهد الشرفاء . وعمت كل هذه الدويلات على تشجيع اللغة العربية ، وحماية الثقافة ، وإيفاد الطلاب واستقدام الأساتذة ، كما التزمت سياسة الجهاد بوكيد للروح الإسلامية التي غلبت عليهم ، ولذات نشأت في كنفهم أنماط من الحضارة الإسلامية متأثرة بعاداتهم ورسومهم وتقاليدهم القديمة .

ومن هذه الإمبراطوريات التي نهضت وقتذاك إمبراطورية مالي وهي التي أسسها شعب الماندنغو الذي أسلم على يد المرابطين وبلغت هذه الإمبراطورية إلى ذروة التوسع في عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٢٢) ، إذ نشر نفوذه شرقاً حتى بحيرة شاد ، ودخلت منطقة السافانا كلها في ملكه ، وكانت له مراسلات وصلات مع مصر المملوكية . وزار ابن بطوطة هذه البلاد في القرن الرابع عشر ، ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة ، وعلماء من كل بلد إسلامي ، كما زارها ليو الإفريقي في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد حياة إسلامية في غاية الازدهار ، ومن هذه الإمبراطوريات كذلك إمبراطورية سنغهاي وصلت إلى قمة التوسع في عهد ملكها إسكى محمد عام ١٥١٣ ، ونهضت بنفس الدور الذي لعبه المالايون من قبل .

وكان من أنرجهود الطوارق عبر هذا التاريخ الطويل انطبعت أن الثقافة العربية في المنطقة بطابع مغربي واضح ، إذ كانت المالكية مذهب الناس ، والمدارس مغربية محتها ، والكتب المتداولة هي كتب عياض وسحنون وموطأ مالك ، والقلم هو القلم المغربي . أي أن الثقافة كانت في ثقافة مغربية على أرض إفريقية .